بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

جابهت فرنسا أزمات داخلية خطيرة فى أواخر القرن الثامن عشر ، وكانت تلك الأزمات الشرارة الأولى لاندلاع نيران الثورة الفرنسية ، فقد كانت فرنسا محرومة فى تلك الفترة من المساواة الاجتماعية ومن الحرية الاقتصادية ومن نظام ضرائبى عادل ، إذ سيطرت امتيازات العصور الوسطى على جميع نواحى الحياة فى فرنسا . ومن أمثلة تلك الامتيازات امتيازات رجال الكنيسة وامتيازات النبلاء وامتيازات جمعيات الأقاليم . وقد ترتب على تلك الامتيازات إلقاء عبء الضرائب على كاهل الشعب الفقير وحرمان أبناء الطبقة الوسطى الممتازين من المناصب الكبرى فى الجيش والكنيسة والقضاء .

وبينما كانت تعيش الطبقات الحاكمة والإقطاعية فى بذخ وإسراف ، كان الشعب الفرنسى يتضور جوعاً ويتعرض للمجاعات من وقت لآخر .

وعندما اعتلى لويس السادس عشر عرش فرنسا عام ١٧٧٤ كانت الأزمات السابقة قد وصلت إلى الذروة ، ولم يكن الملك الجديد — الذى حرمته الطبيعة صفاء الذهن وسرعة البت فى الأمور والجد والمثابرة — الشخصية التى تستطيع التغلب على تلك الأزمات . وفور تولية لويس السادس عشر الحكم قامت أزمة مالية حادة . وفى عام ١٧٧٥ أسندت وزارة المالية إلى « ترجو » Turgot الذى كان معروفاً بأصالة الرأى ، واستطاع « ترجو » القيام ببعض إصلاحات كان من شأنها القضاء على الأزمة المالية فى مهدها ، لكن لم تكن الحاشية راضية عن « ترجو » فأخذت تكيد له عند الملك حتى عزله فى مايو ١٧٧٦ .

وفى أثناء تلك الفترة كان هناك فيلسوف كبير فى مرحلة التكوين . وذلك هو « كوندرسيه » Condorcet الذى لم يرض عن استبداد وطغيان الإقطاعيين

ولم يعجبه نظام الامتيازات ، فأخذ يكتب المقالات فى الصحف منادياً برفع الظلم وإلغاء نظام الامتيازات ، وأخذ نجمه فى الصعود عندما عُيِّن صديقه « ترجو » وزيراً للمالية ، فقد أسند إليه « ترجو » منصب مفتش عام المالية الفرنسية .

وبعد عزل « ترجو » عين الملك « نكر » Necker وزيراً للمالية ، ورغم خبرته فى الشئون المالية ، فقد اضطر إلى الاستدانة ، ونشر « نكر » الحسابات الحقيقية للميزانية مما كشف عن المنح والعطايا المقدمة من الملك لخدمه ورجال حاشيته ، فأخذ البلاط الملكى يقاوم الوزير الجديد حتى اضطره إلى التخلى عن منصبه . وجاء بعده الوزير « كالون » الذى كان مسرفاً مما أدى إلى مضاعفة الضائقة المالية وأصبحت أخطر مشكلة فى فرنسا إذ كانت تهدد بإفلاس الحكومة الفرنسية . وفى عام ١٧٨٨ أعلن الملك عزمه على عقد مجلس الأمة ، ليكون عوناً له فى معالجة الأزمة ، وفى مايو عام ١٧٨٩ افتُتح « مجلس الأمة » فى قصر فرساى بحضور مندوبى الأشراف والكنيسة والعامة . وكان « كوندرسيه » أحد أعضاء مجلس الأمة العاملين ، ومنذ ذلك التاريخ أصبح « كوندرسيه » صحفياً أكثر منه رجل علم ، فقد اهتم بالصحافة وأخذ يكتب فى صحف كثيرة منها « المكتبة العامة للإنسان » و « فم من حديد » ، وكانت تتميز مقالات « كوندرسيه » بالعمق والحماس ، وتعتبر تلك المقالات من العوامل الرئيسية للثورة الفرنسية .

وفى سبتمبر عام ١٧٩١ تم وضع الدستور الجديد بعد اضطرابات ومذابح هائلة ، وقد نص الدستور على إلغاء امتيازات الأشراف ورجال الدين واستيلاء الدولة على أموال الكنيسة ، وكان من نصوص الدستور تكوين « جمعية تشريعية » مهمتها تنفيذ مواد الدستور وحماية مكاسب الثورة ، وانتخب « كوندرسيه » عضواً فى تلك الجمعية ، وبهذا المنصب وصل إلى أعلى الوظائف التى ارتقاها ،

وقد لعب « كوندرسيه » دوراً هاماً فى الجمعية التشريعية ، فقد كان متمسكاً فى خطبه بالحقوق الطبيعية للشعب وأهمها الحرية والمساواة .

وعندما تكون « المؤتمر الوطنى » فى ٢٠ سبتمبر عام ١٧٩٢ انتخبت خمس مقاطعات « كوندرسيه » عضواً فيه ، وكان يوجد فى ذلك المؤتمر حزبان كبيران متعارضان هما حزب « الجيروند » وكان يجلس أبناؤه فى الجناح الأيمن ، وكانوا يمثلون الاتجاهات المحافظة ، وحزب « اليعاقبة » وكان أتباعه من المتطرفين وكانوا يجلسون فى الجناح الأيسر ، وكان يجلس فى الوسط أتباع حزب « السهل » وكانوا يتبعون رأى الفريق الأقوى . أما عن موقف فيلسوفنا « كوندرسيه » فلم يكن يتبع أى حزب ، وكان عادلاً فى مناقشاته وآرائه لا يناصر إلا الحق ، ولا يستجيب إلا لصوت ضميره . وعندما تقدم حزب « اليعاقبة » باقتراح إعدام الملك ، قام كوندرسيه وعارض الفكرة ، وفى تلك اللحظة عرف « اليعاقبة » أن أمامهم خصماً عنيداً . ورغم معارضة كوندرسيه فقد وافق معظم أعضاء المؤتمر على إعدام الملك فى ١٧ يناير عام ١٧٩٣ ، ونفذ فيه الحكم فى ٢١ يناير بميدان الجمهورية وانتهى النظام الملكى بفرنسا .

وتقدم « كوندرسيه » — بوصفه عضواً فى لجنة الدستور — بمشروع دستور جديد رفضه « اليعاقبة » وقدموا مشروعاً آخر معارضاً لما قدمه كوندرسيه ، وأقر المؤتمر الوطنى مشروع « اليعاقبة » . وضايق هذا الموقف « كوندرسيه » فكتب احتجاجاً ينقد فيه الدستور الذى جاء به « اليعاقبة » ؛ ووزع الاحتجاج على أعضاء المؤتمر الوطنى ، فى تلك اللحظة وجد اليعاقبة الفرصة للتخلص من خصمهم العنيد ، فأصدروا أمراً بالقبض عليه فى ٨ يولية عام ١٧٩٣ ، وكان قد بدأ الإرهاب فى فرنسا ، واختبأ كوندرسيه عند أحد معارفه ، وفى مخبئه هذا وضع كوندرسيه أهم مؤلفاته ، وأخيراً قبض عليه ومات فى السجن .

ويقول عنه العلامة « برويو » Prior :

« كان كوندرسيه آخر الفلاسفة ، فهو الفيلسوف الوحيد الذى لعب دوراً

نشيطاً فعالاً فى الثورة الفرنسية ، وبعد أن كان أكبر زعماء الثورة الفرنسية وأكثر رجالها تحمساً للحرية والإخاء والمساواة أصبح شهيداً من شهدائها[١]!».

وإذا انتقلنا إلى الاتجاهات الفكرية السائدة فى عصر كوندرسيه ، نجد أن القرن الثامن عشر يتميز فى جملته بسيادة فكرة القانون ، سواء فى العلوم الطبيعية أو العلوم الاجتماعية ، وكان مونتسكييه (١٦٨٩ — ١٧٥٥ م) أول من أشار فى أوربا بأن الحياة الاجتماعية تخضع لقوانين محددة شأنها فى ذلك شأن العالم الطبيعى ، ويرى أن القوانين هى « علاقات ضرورية تشتق من طبائع الأشياء » ، وقد تأكدت تلك الفكرة على أيدى جماعة « الفيزوكرات » وهى جماعة اقتصادية ظهرت فى فرنسا فى القرن الثامن عشر ونادت بأن الأرض هى أهم عوامل الإنتاج الاقتصادى وبأن العالم الاقتصادى يخضع لقوانين إلهية ثابتة ، ونادت أيضاً بالحرية الاقتصادية . وقد ظهر هذا الاتجاه فى إنجلترا فى القرن نفسه . فقد نادى الاقتصادى الإنجليزى آدم سمث — فى كتابه « ثروة الأمم » الذى ظهر فى إنجلترا عام ١٧٧٦ — بمبدأ القوانين العامة التى تنظم الحياة الاقتصادية ، وأهمها قوانين تقسيم العمل والعرض والطلب وحرية التجارة . ولم تقتصر فكرة وجود القوانين العامة على الظواهر الاقتصادية ، بل اتسع نطاقها حتى شملت كل مظاهر الحياة الاجتماعية . وقد تبلورت تلك الفكرة فى أحد فروع المعرفة الذى ازدهر فى القرن الثامن عشر وهو فلسفة التاريخ ، ويعد كوندرسيه من أهم المؤسسين لفلسفة التاريخ . وتقوم فلسفة التاريخ على مبدأين هما :

مبدأ القانون العام : بمعنى أن حياة الإنسانية بجميع جوانبها تسير وفق قانون عام يحدد مراحل تطور المجتمعات البشرية .

مبدأ التقدم : بمعنى أن الإنسانية فى تطورها وفق القانون العام تسير دائماً

---

(١) Prior, O.H. L'introduction, : Condorcet : Esquised'un Tableau Historique des progrés de l'Esprit Humain, Bibloiteque de Philosophie, Paris 1933.

نحو التقدم ، وهو تقدم قائم على أساس العلم ومحاربة الخرافات .

وهكذا نلاحظ أن كوندرسيه خير فيلسوف يمثل القرن الثامن عشر فى أوربا فإذا قلنا إن القرن الثامن عشر يتميز بالثورة الفرنسية ، نجد إن كوندرسيه هو فيلسوف الثورة الفرنسية ، وإذا قلنا أن القرن الثامن عشر يتميز بازدهار فلسفة التاريخ نجد إن كوندرسيه هو أهم فلاسفة التاريخ .

وصفوة القول أننا أمام أهم فلاسفة القرن الثامن عشر الميلادى وتتلخص أهمية كوندرسيه فيما يلى :

— هو فيلسوف الثورة الفرنسية ، الذى دعا إليها واستشهد فى سبيل مبادئها .

— آمن كوندرسيه بالمنهج العلمى القائم على أساس استخدام الملاحظة الدقيقة والوسائل الرياضية سواء فى العلوم الطبيعية أو العلوم الاجتماعية ، وقد حارب بشدة التعميمات الخاطئة والأفكار الخيالية المجردة .

— نادى بإنشاء علم جديد سماه « الرياضة الاجتماعية » وهو خاص بدراسة الظواهر الاجتماعية عن طريق استخدام العلوم الرياضية وخاصة الإحصاء وحساب الاحتمالات . وهكذا أنار السبيل أمام العلماء من بعده حتى استطاعوا تحديد المناهج الإحصائية الدقيقة لعلم الاجتماع . ويعد كوندرسيه الأب الروحى لكل من سان سيمون وأوجست كونت .

— يعد كوندرسيه من أهم « فلاسفة التاريخ » .

— نادى كوندرسيه بنظرية جديدة فى التربية تقوم على أساس تكافؤ الفرص بين جميع أبناء الأمة . ووضع مشروعاً للتعليم العام يهدف إلى خلق المواطن الصالح ، وقد قدم هذا المشروع إلى البرلمان الفرنسى فى جلستى ٢١ و ٢٢ أبريل عام ١٧٩٢ ، وكان يحوى المشروع أفكاراً تربوية ترجع لكوندرسيه وحده .

— كان كوندرسيه متفائلاً بمستقبل الإنسانية ، فرسم صورة جميلة للتقدم الإنسانى فى المستقبل عن طريق التقدم فى العلوم المختلفة . وقد شجع هذا التفاؤل العلماء والمفكرين على السير فى طريقهم حتى وصلوا إلى عصر الازدهار العلمى العظيم الذى نعيش فيه الآن .

— هاجم كوندرسيه الرق وندّد بالتعصب العنصرى ودعا إلى الحرية والمساواة بين جميع البشر مهما اختلفت ألوانهم أو عقائدهم ، وأسس كوندرسيه جمعية « أصدقاء السود » التى تدعو إلى المساواة .

— آمن كوندرسيه برسالته فى الحياة وكان يتمتع بإرادة حديدية ، فنراه يكتب أهم مؤلفاته — كتابه الشهير « الملخص لتقدم العقل البشرى » — وهو فى مخبئه معرّض للقبض عليه وإعدامه فى أية لحظة ، ورغم أنه كتب هذا المؤلف وهو فى أسوأ حالة تصادف أى إنسان فى الوجود إلا أننا نجده كله أمل وتفاؤل بالإنسانية وبالتقدم الذى ينتظرها فى المستقبل . لقد ألف كوندرسيه كتابه هذا وهو بين أربعة جدران بعيداً عن المراجع والمكتبات . وعندما لم يجد كوندرسيه ورقاً لكتابة بحثه استخدم أغلفة الطعام وأوراق النتيجة المعلقة فى حجرته ، وإذا تصفحنا مؤلفه الشهير لا نجد كلمة واحدة تدل على الظروف السيئة التى كان يعيشها الفيلسوف وهكذا لم يسمح لظروفه الذاتية الشخصية بالتأثير على نظرياته .

ويتضح من تلك المقدمة المختصرة عن أهمية كوندرسيه ، أننا أمام أحد نوابغ الفكر الغربى الكبار . يجب تقديمه إلى قراء العربية ، ومما يزيد من أهمية تقديمه إلى المثقفين العرب أنه درس فى مؤلفه الشهير « ملخص العقل البشرى » الدين الإسلامى والحضارة العربية وأثرهما فى النهضة الأوربية .

وقد قسمت الدراسة إلى أربعة فصول ، يعالج الفصل الأول حياة كوندرسيه ويعرض الفصل الثانى لجميع مؤلفاته ، وفى الفصل الثالث عرض وتحليل لأهم آرائه . أما الفصل الرابع والأخير فقد اشتمل على نصوص من أقواله يصاحبها ترجمة عربية لها .

والله الموفق إلى ما فيه الخير .

المؤلف